ملحوظات ختامية

أولاً: متطلبات تحقيق التكامل المعرفي

1. تحديد الدلالة المباشرة لمفهوم التكامل

تعددت دلالات هذا المفهوم كما تعدّدت سياقات استعماله. وأكثر هذه الدلالات استعمالاً هو الموسوعية والإلمام بعلوم متعددة في مقابل الاقتصار على التخصص الدقيق، وربما يلي هذه الدلالة في الشيوع حاجة العلوم إلى بعضها بعضاً في نموِّ العلم وتقدمه من جهة، أو في تطبيقه وتوظيف مبادئه عملياً من جهة ثانية.

وبعيداً عن الجدل في دلالة هذا المفهوم في الاستعمال الشائع، فإنّ الدلالة المقصودة في سياق حديثنا في هذا المقام، ترتبط بما أسميناه بمعادلة التكامل المعرفي، التي تعني التكامل في ثلاثة مستويات متضايفة متلازمة، هي التكامل بين مصدري المعرفة: الوجود والوحي؛ والتكامل بين أداتي المعرفة: العقل والحس، والتكامل بين المصادر والأدوات. وقد ارتبط هذا المفهوم بالجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الوجود، أو قراءة الكتاب المسطور وقراءة الكتاب المنظور. وبصورة مباشرة نعني بالتكامل المعرفي، في سياق مشروع إسلامية المعرفة، أو الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر:

- امتلاك معرفة كافية بمبادئ الإسلام ومقاصده.
- ومنهجية مناسبة لتوظيف هذه المبادئ أو المقاصد.
- وإعمال هذه المنهجية في فهم العلوم المعاصرة والتعامل معها.
- وبناء شخصية إسلامية معاصرة، تتصف بالتماسك والفاعلية.
- وتمكين الأمة من الإسهام المتميز في الحضارة الإنسانية وترشيدها بهداية الوحي الإلهي.

obeikandl.com

2. التعامل مع أهداف العلوم ومضامينها وعدم الاقتصار على تاريخ العلوم

دلالة مفهوم التكامل المعرفي المشار إليها أعلاه تفترض ضرورة تجاوز الحالة التعليمية السائدة لعلوم الشريعة، التي تقدم عقائد الإسلام وعباداته ومعاملاته في صورة تاريخية، يغلب عليها فهم أمور الدين ضمن حدود ما مضى من الزمن. فإذا توفر الاقتناع بضرورة هذا التجاوز، لزم الانتقال بما يتم تقديمه عن الإسلام ليصبح علوماً ترتبط بتوجيه وعي الإنسان المسلم بمهمَّته في الحياة، وسعيه في حركته في الواقع، لترتبط هذه العلوم بالواقع الراهن للأمة المسلمة، وتمكينها من القفز إلى مقدمة الأمم في مجالات الإنجاز المتميّز والفاعلية الحضارية.

3. التكامل في شروط تحقيق التكامل المعرفي:

لعل تحقيق مفهوم التكامل المعرفي يتطلب أربعة شروط متلازمة هي:

- التشبُّع بالرؤية الوجودية الإسلامية، لتصبح هذه الرؤية مرجعيّة في فهم الأفكار واستيعابها والتعامل معها. ويعني ذلك فيما يعنيه: التمكن من المعارف الإسلامية ذات العلاقة المباشرة بموضوع البحث، سواءً على مستوى النصوص الأصلية في الكتاب والسنة، أو على مستوى اجتهادات السلف في فهم هذه النصوص في سياقات هذه الاجتهادات في الزمان والمكان والأحوال، وإعادة الاجتهاد فيها، في ضوء ما تكشَّف للإنسان، عبر العصور اللاحقة وفي هذا العصر، من فهم متجدد لمقاصد تلك النصوص وإعمالها في المكان والزمان ومستجدات الواقع وظروفه.
- استيعاب العلوم والمعارف المعاصرة ذات العلاقة بموضوع البحث والتمكن منها حتى ينطلق التفكير في الموضوع من حيث انتهت الخبرة الإنسانية. ويتضمن هذا الاستيعاب الحقائق والمفاهيم والمبادئ والنظريات، ويتضمن المنطلقات الفلسفية والخلفيات التاريخية والاجتماعية لنشأة هذه العلوم والمعارف، ودور هذه المنطلقات والخلفيات في صياغة هذه العلوم وفي توظيفها.

Obeikan.com

- تطوير الرؤية التحليلية النقدية لتمييز عناصر المقولات المذهبية والمرجعيات الفكرية، سواءً في الخبرة الإسلامية أو الخبرة الإنسانية المعاصرة، والنظر إلى هذه الخبرة في مجموع عناصرها ومدارسها ومرجعياتها نظرة كُليَّة تُعين في الحكم العادل على عناصر هذه الخبرة وجزئياتها وموقع كل منها. إنَّ هذه الرؤية التحليلية النقدية ضرورية ليس في عملية بناء الفقه الكلي في مسائل البحث واستيعابها على الوجه الأمثل وحسب، وإنَّما في تحديد الفجوات التي تحتاج إلى استكمال الجهد وتقليب النظر والبحث، ومن ثم اقتراح تحديد الأولويات البحثية، وتطوير المشروعات العلمية والتخطيط لتنفيذها، والاستعانة في ذلك بأهل التخصصات الدقيقة ذات العلاقة سواءً في مجال العلوم الإسلامية أو العصرية.
- إذا كانت الشروط الثلاثة السابقة تعني الجهد المطلوب للاستيعاب، فإنَّ الشرط الرابع يعني التجاوز. ونأمل أن لا يفهم من التجاوز الإهمال، فلو كان إهمال ما سبق من عمليات التمكُّن من كل من مصادر التأسيس الإسلامية والخبرة الإنسانية المعاصرة مقصوداً لما عددناها شروطاً أساسية في التكامل المعرفي. إنما المقصود بالتجاوز الانتقال من كل من خبرة الماضي وخبرة الحاضر إلى بناء مستقبل جديد يهتدي بنصوص الوحي ومقاصده، وسنن الكون الطبيعي والاجتماعي والنفسي، والخبرة المتراكمة في هذه السنن. والمستقبلُ المنشود في الرؤية الوجودية الإسلامية ليس عودةً إلى صورة من صور الماضي، ولكنه قفزة إلى الأمام، يبدع فيها العقل المسلم صورة لا تقل في جدّتها عن الصورة التي أبدعها في عهد الرسالة الأول، حين صنعت هداية الوحي وحركة الإنسان المسلم بهذه الهداية ثقافة جديدة، وحضارة جديدة، وإنجازاً بشرياً متميزاً، لم تعهده البشرية من قبل.

إنَّ الواقع البشري المعاصر في أمسِّ الحاجة إلى هذه القفزة الإبداعية، التي تستطيع إعادة تشكيل الحضارة الإنسانية المعاصرة، وتوظيف إنجازاتها، وترشيد طاقاتها، بعد أن ذاقت البشرية من ويلات هذه الحضارة، وأصبحت البشرية عاجزة عن تحمل المزيد من هذه الويلات. عندها سيعود الإسلام غريباً كما بدأ،

ويحقق هؤلاء الغرباء ما حققه الجيل الأول منهم، من تجديد في مفهوم الدين والتدين، والنهوض بمهمّة الخلافة في الأرض وعمرانها بالحق والعدل والسلام.

لقد شهد القرن العشرون محاولات متعددة لإعادة بناء العلاقات بين الأفراد والمجتمعات بصورة تجنب العمران البشري ما يتهدده من مهلكات. لكنَّ كل هذه المحاولات كانت تفتقد العنصر الوحيد القادر على صهر مكونات الحضارة وترشيدها وإعادة توجيهها، وفقدت هذه المحاولات حاسَّة الاتجاه نحو طريق الخلاص مما تعانيه البشرية من مهلكات. هذا العنصر هو الطاقة الروحية التي يحقِّقها الدين، يومئذ تنصهر طاقاتُ الإنسان، وموارِدُ الأرض، والإدارةُ الحكيمة لهذه الطاقات والموارد، ويتمُّ ترشيد هذه الطاقة وتنميتها وتوظيفها بالحق والعدل.[23]

ثانياً: خصائص منهجية التكامل المعرفي في مجال التفكير

الإنسان كائن مفكر، والتفكير صفة مميزة للإنسان، فمنهجية التفكير عند الإنسان هي أهم مجال من مجالات المنهجية، لأن التفكير هو الأساس لما بعده من بحث أو ممارسة عملية أو سلوك فردي أو اجتماعي. وتتصف منهجية التفكير في الرؤية الإسلامية بمجموعة من الخصائص التي تتكامل فيما بينها، فالتفكير وفق هذه المنهجية هو:

1. تفكير مقاصدي: يحقق الفهم والاستيعاب للنص في ضوء حكمة نزوله، والواقع وعلاقتهما في ضوء الرؤية المقاصدية.
2. وتفكير كلي: يوظف الرؤية الكونية الشاملة، ويسكِّن المسائل الجزئية في مواقعها المناسبة، وبأقدارها المناسبة، زماناً ومكاناً وحالاً.

(23) نتذكر في هذا المقام رؤية مالك بن نبي في صياغته لمعادلة الحضارة الإنسانية التي تتكون من عناصر ثلاثة هي: الإنسان والتراب والزمن، حين تتفاعل نتيجة الشخصية الروحية التي يوفرها الدين. انظر:

- ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986م، ص45.

3. وتفكير سنني: يربط وقوع الأحداث، وظهور النتائج، وتجليات الظواهر بأسبابها.
4. وتفكير عملي: ينظر في الأمر من حيث علاقته بالواقع، ويبحث عن البدائل الممكنة و"السيناريوهات" التي يمكن تصورها لحل المشكلات الراهنة.
5. وتفكير استراتيجي استشرافي لبناء المستقبل وتحقيق النهوض الحضاري للأمة، ويتصف بالإيجابية والتفاؤل.

ثالثاً: منهجية التكامل المعرفي في البحث

لا نستطيع أن نتصور عملاً بحثياً في معزل عن عمليات التفكير، فمنهجية التكامل المعرفي في مجال البحث يتطلب جميع عناصر هذه المنهجية المطلوبة في مجال التفكير. ومع ذلك فإن التأمل في متطلبات منهجية التكامل في مجال البحث سوف يقود إلى تحديد عناصر أكثر تفصيلاً نذكر منها على سبيل المثال: تحديد أولويات حقيقية للبحث.

هذا التحديد لأولويات البحث الحقيقية يمكِّن الباحث من اختيار القضايا الأجدر بالاهتمام، في مجتمع محدد، وظرف محدد، فليس كل ما يبحث في مجتمع يلزم بحثه في مجتمع آخر. وممارسة البحث ليست هدفاً في حدِّ ذاتها، وإنما هي وسيلة للوصول إلى العلم والمعرفة اللازمة لحل المشكلات، والإجابات عن الأسئلة، وتطوير مستويات الأداء. وليس كل ما تم بحثه من قضايا، وتدوينه من علوم في التراث الإسلامي يلزم إعادة بحثه، أو إعادة كتابته من جديد، لأنَّ ما كتب في هذا التراث كان اجتهاداً في تنزيل هداية الوحي على قضايا الواقع، قام به علماء أدّوا واجب زمانهم ومجتمعهم، في حدود السقف المعرفي الذي كان متاحاً لهم. والمطلوب الآن هو أن يجتهد علماء اليوم في تنزيل هداية الوحي على قضايا الواقع المعاصر ومشكلاته، فالوحي نبع مطلق لا ينضب مع كثرة الورود، وصلاحيته قائمة على مدى الزمان والمكان، وهدايته متواصلة لا تنقطع، وجدَّتهُ لاتخلق على كثرة الردّ.

إن الانشغال بإحياء التراث، وتحقيق المخطوط منه، ونشره وتيسير الاستفادة منه بالشرح أو الاختصار، ليس بديلاً عن الاجتهاد في إنشاء علوم جديدة مستنبطة من نصوص القرآن والسنة، فليس صحيحاً أنَّ السابق لم يترك شيئاً للاحق، إلا حين تصل الأمّة وعلماؤها إلى حالة العجز عن الاجتهاد والإبداع والعطاء المتجدد، وهي حالة تعبر عن تعطل حيوية الأمّة وانعدام وزنها بين الأمم، وتوقف إسهامها في العطاء الفكري والحضاري، ووصولها إلى حالة الغثائية التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم إن العلوم في المنظور الإسلامي ليست مقصورة على ما سمي العلوم الشرعية أو علوم الشريعة، مما كان يدور على النص تدويناً وتوثيقاً وتفسيراً واستنباطاً، بل يشمل ما يعرف اليوم بالعلوم الطبيعية الدقيقة والعلوم التطبيقية العملية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية. ودراسة هذه العلوم من منظور إسلامي ليست مستنبطة بالضرورة من نصوص الوحي، وإنما هي علوم للطبائع والوقائع في ضوء السنن الكونية والاجتماعية والنفسية التي أودعها الله سبحانه في الأشياء والأحداث والظواهر.

ونصوص القرآن الكريم في هذا المجال تشكل مصدراً للهداية العامة التي ترشِّدُ سعْي الإنسان في اكتساب المعرفة واختبارها وتوظيفها في تحقيق العمران، وتيسير سبل الحياة على هذه الأرض. والعالم المسلم والباحث المسلم بما يمكن أن يستمده من هداية القرآن لن يتردد في ممارسة العمل العلمي الذي يتطلبه موضوع البحث سواءً في الاطلاع على ما عند الآخرين، أو في إعمال المشاهدة والتجريب، ضمن أكثر الأساليب والوسائل فاعلية وملاءمة.

رابعاً: تمثلات منهجية التكامل المعرفي في مجال السلوك

أشرنا في فصل مبادئ وقيم المنهجية، بإيجاز شديد، إلى المبادئ الحاكمة للمنهجية في مجال السلوك، وحددنا ثلاثة مبادئ تتكامل فيما بينها لضبط السلوك بصورة منهجية، هي النيّة والاتباع والإبداع، وحين يقوم الإنسان بتفعيل هذه المبادئ فإنه يتجاوز سلوك العرف والعادة، أو السلوك العشوائي الذي تحدده المصلحة الشخصية الراهنة، أو سلوك الآخرين دون وعي أو تمحيص.

يرتبط السلوك غالباً بالجانب العملي الظاهر من فعل الإنسان الذي يمكن ملاحظته، لكن هذا الجانب الظاهر هو في حقيقته نتيجة مباشرة لعمل خفيٍّ، يقوم به الإنسان حين يُعمل التأمل والتفكير، والنظر في البدائل والخيارات، ويجري الموازنة والمقارنة، ثم يصل إلى ما ترتاح إليه نفسه ويطمئن إليه قلبه، فيعقد نيَّته ويعزم أمره. هذا السلوك الباطني، هو تعبير عن حركة القلب والضمير، وهي عند الإنسان المسلم الذي يود ممارسة المنهجية الإسلامية توجه نفسي نحو الخالق سبحانه، هو صورة من التقوى الذي يتوخى فيها الإنسان ما يؤدي إلى رضا الله وثوابه ويتجنب ما يؤدي إلى غضبه وعقابه.

وهذا السلوك يأخذ بالحسبان تجربة الآخرين لما هو سبيل مطروق ومجرب، ينتهي إلى القصد والغاية، فلا حاجة للتجربة والخطأ، فهو اتباع بوعي وبصيرة، يستقيم به سلوك الفرد على نهج النبوة، وهو تعبير عن الهوية وانسجام مع الحركة الجماعية لتحقيق الانتماء للمجتمع والأمة. ولكنه مع ذلك ليس تبعية عمياء وقولبة جامدة في مستوى الحد الأدنى من الأداء، وإنّما هو سعي متصل للارتقاء والنمو والإبداع، ابتغاء الحكمة والإحسان، وتجاوز المعوقات

والمنهجية الإسلامية في السلوك تقتضي التكامل في التعامل المنهجي مع عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، وغيرها من العوالم، ذلك أنَّ ميادين التفكير والبحث لا تقتصر على عالم من هذه العوالم دون غيره.

في الختام سيكون من الضروي أن نؤكد الصور التي يلزم أن تظهر فيها تمثلات الثقافة المنهجية في مؤهلات الشخصية العلمية المسلمة التي تتصف بالتكامل، والأستاذ الجامعي بوجه خاص. ذلك أنّ الأستاذ الجامعي بشخصيته العلمية الإسلامية:

- يشعر أن الثقافة المنهجية عنصر أساسي في شخصيته العلمية وهويته العملية.
- وهذه الثقافة المنهجية عنصر أساسي يتكامل مع جوانب الثقافة الأخرى: الثقافية العلمية التخصصية التي تجعله عالماً، والثقافة العامة التي تجعله مصلحاً في محيطه الاجتماعي، والثقافة المسلكية التي تجعله مربياً للأجيال.

- وهو يمارس التفكير المنهجي تحديداً وتمييزاً، والبحث المنهجي عملاً مهنياً، والسلوك المنهجي شأناً يومياً.
- ويتم ذلك كله بطريقة عفوية.
- وتكون المنهجية سمةً ملازمة له.
- يعطي منها ما يلزم، لمن يلزمه، بصورة مباشرة.
- والله سبحانه أعلم.

obeikan.com